الفراق في الشعر العباسي

أ.م.د. ثائر سمير حسن الشمري
جامعة بابل/ كلية التربية الأساسية

ربما تبدو كلمة الفراق كلمة اعتيادية ضمن قاموس اللغة العربية، من حيث شكلها ورسم حروفها، ولكن جوهرها يوحي بما هو اكبر من ذلك بكثير، ولا سيما لمن عانى ألم ذلك الجوهر بشكل فعلي ملموس، فوحده القادر على إعطاء معناها الدقيق من دون أن يشتط فيه أو يغالي في رسم صورة ذلك الجوهر المعقد في داخله.

وتبدو أهمية دراسة ثيمة الفراق، ولاسيما في الشعر، من خلال أن الناس جميعهم يتعرضون له سواء في فراق الحبيبة، أو في فراق الأصدقاء، أو عندما يفرق الموت بينهم وبين أحبتهم، أو حين تغزو جنود الشيب رؤوسهم، فتبعد عنهم الشباب الذي يعتزون به، ويعدونه سر الحياة السعيدة، فبدونه لا يساورهم سوى الخوف من قرب الموت، والشكوى من ذهاب الصحة ومتع الحياة عموما.

ويغرز الفراق سكينه في صدر كل من يطرق باب داره، تاركا اياه في حال الم ممض لا يتمكن من تحمله، نظرا للجرح الكبير الذي اصابه به، ولاسيما حين يشعر ذلك الجريح باستحالة شفائه، كونه جرحا معنويا لا شكليا، لذا فانه يضطر الى التعايش معه على مضض، إذ لم يُبقِ له الفراق سوى الذكريات الجميلة التي قضاها سابقا مع من فارقه، فيعيش معها بمعنييها السعيد والمؤلم على حد سواء.

ولابد لنا– قبل التوغل في دراسة ثيمة الفراق في الشعر العباسي دراسة تفصيلية – ان نشير الى ان الشعراء العباسيين تناولوا قضايا عدة تتعلق بالفراق، ومنها فراق الحبيبة، وفراق الاقارب والاحبة من خلال موتهم، وفراق الاصدقاء، فضلا عن فراق الشباب، كما انهم وصفوا الفراق بصفات سلبية عدة، وابانوا عن افعاله بالناس الذين اصابهم باحد مظاهره المتعددة، لذا لم يرحبوا به، بل ودعوا عليه دعوات مختلفة، وذلك كله ما سنتطرق اليه تباعا من خلال الدراسة هذه.

ان فراق الانسان للمرأة التي يعشقها – بغض النظر عن الاسباب– يترك في فؤاده لوعة شديدة، وحسرة كبيرة، تجعله مدركا سر الفراق باحساس عال، لان فراق الحبيبة ليس امرا سهلا كما يعلم الجميع، ولاسيما لمن كان يعشق عشقا حقيقيا ذا صدق في التجربة الانسانية من دون اهداف غير مشروعة لا يرتضيها الدين والمجتمع، ولا العقل والاخلاق، لذا سيكون فراق الحبيبة اول حديثنا عن مضامين ثيمة الفراق في الشعر العباسي، وسنفتتحه بقصة واقعية عن الخليفة (هارون الرشيد)، إذ قيل إنّه هجر جاريته (ماردة) وهي ام المعتصم، وكاد يموت من عشقها، فتكبر ان يبدأها بالصلح، وكذلك فعلت هي ايضا، فصبرا على ذلك بأمرٍّ عيش، وكاد الرشيد يتلف، وكان وزيره الفضل بن الربيع قد احضر العباس بن الاحنف، وعرفه القصة قائلا له: قل في ذلك شيئا فقال:

العاشـــــقان كلاهمـــــا مُتَغَضِّـــــبُ و كلاهمـــــا مُتشـــــوِّقٌ متطـــــرِّبُ

صَـــــدَّتْ مُراغِمَـــــةً وصَـــــدَّ مُراغِمـــــاً وكلاهمـــــا ممّـــــا يُعـــــالجُ مُتْعَـــــبُ

راجِـــــع أحبَّتَـــــكَ الـــــذين هجـــــرتَهُمْ ان المُتَـــــيَّمَ قلَّمـــــا يتجنَّـــــبُ

ان التجنُّـــــب إنْ تمكَّـــــن منكمـــــا دَبَّ الســـــلوُّلهُ فعـــــزَّ المطلـــــبُ

فبعث الفضل بالابيات الى الرشيد، فسُرَّ بها سرورا كبيرا، ولم يستتم الرشيد قراءتها حتى قال العباس في ذلك ايضا:

لابُـــــدّ للعاشـــــقِ مـــــن وقفـــــة تكـــــون بـــــين الوصـــــلِ والصَّـــــرْمِ

يَعتِـــــبُ أحيانـــــاً، وفـــــي عَتْبِـــــهِ يَهِـــيجُ مـــا يُخْفِـــي مِـــنَ السُّـــقْمِ

إشـــــــفاقُةُ داعٍ الـــــــى ظَنِّـــــــهِ وظَنُّـــــــهُ داعٍ الـــــــى الظُّلْـــــــمِ

حتّـــــى إذا مـــــا مضَّـــــهُ شـــــوقُهُ راجَـــــعَ مَـــــنْ يَهْـــوى علـــــى رَغْـــمِ

فاستحسن الرشيد اصابته حالهما، وقال: والله لأُصالحنَّها كما قال. وعرفتْ (ماردة) السبب في الشعر، ولم تَدْرِ مَنْ قائلُه. فسألتْ الرشيد فقال: لا ادري مَنْ صاحبُ الشعر، ولكن الفضل بن الربيع بعث به، فأرسلت الى الفضل تسأله، فأعلمها، فأمرت له بألف دينار، وأمر له الرشيد بألفي دينار، وأمر له الفضل بخمسمائة دينار[1].

كان ذلك متعلقا بهارون الرشيد، أما اخته، وأعني بها (علية بنت المهدي)، فأنها كانت فارقت حبيبها بألم و حسرة، إذ أصابها حزن شديد يوم ودّعت ذلك الحبيب، وبقيت والهة متوجعة حين ارتحل عنها، الى الدرجة التي تتعجب فيها من نفسها لعدم تصدع قلبها نتيجة لذلك الفراق المؤلم لمن تهواه، قائلة:

لاحُـــــزْنَ الا دون حُـــــزْنٍ نـــــالني يـــــومَ الفِـــراقِ وقـــد غـــدوتُ مودّعـــا

فـــإذا الاحبَّـــةُ قـــد تَوَلّـــت عيـــرُهُم و بقيـــتُ فـــرداً والهـــاً متوجِّعـــا

ودّعـــتُ مَـــنْ اهـــوى ورحـــتُ بَحَسْـــرَةٍ عَجبـــاً لقلبـــي كيـــف لـــن يَتَصَـــدَّعا[2]

ان فراق الشاعر لحبيبته لم يكن أمراً سهلاً، الأمر الذي دعا بعضهم الى الاعلان عن عدم مبالاته بفراق الدنيا بقدر مبالاته بفراق الحبيبة، ففراقه لها يعني مفارقته الدنيا من صورة اخرى، فكلاهما سواء لديه، فيقول ابو تمام في ذلك:

مـــا فِـــراق الـــدُنيا أُبـــالي و لكـــنْ فـــي فِـــراقِ الـــدُنيا فِـــراقُ هَواكـــا[3]

أما الشاعر خالد الكاتب الذي اشتهر بشعره الغزلي العذب، فانه يصور _ في مقطوعة جميلة _ ما انتابه من المشاعر لحظة فراق الحبيبة، فطول اشتياقه لها اذابه سقماً، وفاضت عيناه بالدموع و الدماء معاً، وأنحل الفُراق جسمه، ومايزال في وحشة أبداً بسبب ابتعاد حبيبته عنه، ومع ذلك نراه يدعو الله (تعالى) لينتقم له من الفراق، وليس من التي ظلمته بابتعادها عنه قائلاً:

طـــــولُ اشـــــتياقي أذابنـــــي سُـــــقما و أمطـــــرَ العـــــينَ عبـــــرةً ودِمـــــا

فـــــارقَني مَـــــنْ هَـــــواهُ أنحلنـــــي فَبـــــان قلبـــــي و اســـــتخلف السَّـــــقَما

يـــــا وحشـــــةَ الجســـــمِ للفـــــؤادِ فلـــــو يعلـــــمُ مـــــا بـــــي مِـــــن فقـــــدِهِ رَحِمـــــا

يـــــاربِّ خـــــذْ لـــــي مـــــنَ الفـــــراقِ ولا تأخـــــذْ لِقلبـــــي مِـــــنَ الـــــذي ظَلَمـــــا[4]

وفي بعض الاحيان يزداد عشق الشاعر لمحبوبته في لحظة الوداع كما حصل مع البحتري، الذي أكد ذلك الحب المتزايد في اثناء الفراق، فيغلبه الشوق لحبيبته حين يفارقها حتى يضطره للعودة اليها، ويختتم الشاعر مقطوعته ببيت جميل شكلاً ومعنىً، إذ يرى فيه أن الشوق حين يُبليه من بعد غياب حبيبته عنه، فان اشتياقه اليها سيكون جديداً دوماً، يقول:

أَلَـــمْ تَرَنِـــي يـــوم فارَقتُـــهُ أُوَدِّعُـــهُ و الهَـــوى يَســـتَزِيدْ؟

أُوَلِّـــي إذا أنـــا ودّعتَـــهُ فيَغْلِبُنـــي الشَّـــوقُ حتـــى أعُـــودْ

أ فـــي كُـــلِّ يـــومٍ لنـــا رحلـــةٌ فينـــأى قريـــبٌ، ويَـــدنو بعيـــدْ

فـــإنْ يُبْلِنـــي الشَّـــوقُ مِـــن بَعْـــدِهِ فـــإنَّ اشـــتياقي اليـــه جديـــدْ(5)

وحينما تأتي لحظة الفراق، يرى بعض الشعراء ان موتهم يكون قبل قدومها، وذلك لشدة صعوبة الوقوف في ذلك الموقف الذي يثير الألم لدى المحبين جميعاً، فحينما أخبروا ابن المعتز بأن الفراق غداً، اجابهم ان موته سيكون غداً قبل الفراق، وذلك في قوله:

قـالوا: الفِـراقُ غـداً لا شَـكَّ، قلـتُ لَهـمُ: بـلْ مـوتُ نفسـيَ مـن قبـل الفِراقِ غدا (6)

واذا كان في الفراق خير، فان الشاعر نفسه يرى في ذلك خيراً مرًّا، في دلالة على عدم وجود أي نفع فيه، ولاسيما اذا كان ذلك الفراق فراقاً عن المرأة التي أحبها حبًّا جمًّا:

يَقولـــونَ لـــي خِيـــرةٌ فـــي الفِـــراقِ فقلـــتُ لَهُـــمْ خِيـــرة مُـــرَّةْ(7)

ولم يعتقد ابن المعتز الاعتقاد هذا إلاّ لأنه كان مقتنعاً تماماً بمرارة الفراق، فهو ينطق عن يقين بالغ لا غبار عليه، لذا فهو يرى أنّ عينيه لو بكتا الدماء على فقد الشباب وفرقة الأحباب؛ لما بلغتا المعشار من حقيهما، وفي ذلك دلالة أكيدة على أن الشاعر كان لايتحمل الم الفراق، لشدة وطأته على نفسه، فيقول في ذلك:

شَـــيئانِ لـــو بكـــت الـــدماءَ عليهمـــا عَينـــايَ حتّـــى تُؤذِنَـــا بـــذهابِ

لـــم تبلغـــا المِعشـــارَ مـــن حَقَّيهمـــا فَقـــدُ الشـــبابِ و فُرقـــةُ الاحبـــابِ(8)

ويختلف المتنبي– كعادته – عن الشعراء الآخرين من ناحية جمال الوصف لاي مظهر من مظاهر الحياة، ومن ذلك وصفه للفراق، فهو حين يعلن افتداءه للمرأة التي أحبّهَا فافترق عنها، يستدرك بقوله: إنّ تلك اللحظة التي اجتمعا فيها كان سلام حبيبته عليه توديعاً لفراق جديد، فيقول:

بـــأبي مَـــنْ ودِدْتُـــهُ فافترَقنـــا و قَضَـــى اللهُ بَعْـــدَ ذَاكَ اجتِماعـــا

فافتَرَقْنـــا حَـــولاً فلمّـــا التَقَينـــا كـــان تَســـلِيمُهُ عَلَـــيَّ وَدَاعـــا(9)

ويجعل ابو فراس الحمداني الفراق عتاباً للحبيبة، وذلك حين تقوم بهجره ضجراً منه، او نتيجة لسأمها، فعتابه لها يكون بفراقه إياها، بوصف ذلك الفراق علاجاً فعّالاً لشفاء الحب من المرض الذي أصابه، وذلك في قوله:

إذا الخـــلُّ لـــم يهجـــرْكَ إلاّ مَلالـــةً فلـــيسَ لـــهُ إلاّ الفِـــراقَ عِتـــابُ[10]

وعندما ترحل الحبيبة و تبتعد عن حبيبها تترك أثراً سلبياً فيه، إذ لم يعد مُعجباً بالدنيا بعد رحيلها، بل نراه يتمنى الموت حين ابتعادها عنه، فطيب الحياة لديه بقربها منه، وعلى العكس من ذلك في حال رحيلها، إذ أصبحت الحياة مريرة بعدها، و بذلك الفراق عنها أخلفت الامال وعدها له، في الوقت الذي أنجز البين فيه وعيده، يقول الوأواء الدمشقي في ذلك كله:

هـــو الفِـــراقُ فَعِـــشْ إنْ شِـــئْتَ أوفَمُـــتْ لـــيسَ الحيـــاةُ إذا بـــانُوا بُمُعْجِبَتِـــي

وَيـــحَ المنِيَّـــةِ إذ ســـارتْ ركـــائِبُهُمْ لـــوْ أنّهـــا قَبَضَـــتْ رُوحـــي لأحْسَـــنَتِ

كانـــت تَطيـــبُ لـــي الـــدُّنيا بقُـــربِهِمْ فقـــد أمَـــرُّوا لِـــيَ الـــدُّنيا التـــي حَلَـــتِ

قـــد كنـــتُ آمُلُهُـــم والبـــينُ يُوعِـــدُني فـــأنجَزَ البـــينُ والآمـــالُ أخلفـــتِ [11]

وقد أبدع الشريف المرتضى حين وصف لحظات فراقه لحبيبته، وذلك حين عَدّها (أي الحبيبة) قاسية القلب، ورأى أنّ عذله وعتبه لها لن يجدياه نفعاً معها، ثم يصور صفة تلك الحبيبة يوم الفراق الذي لم ينسه الشاعر ابداً، فقد كان وجهها مضيئاً من خلف البرقع، في كناية عن جمالها غير الاعتيادي، وليس ذلك فحسب، وانما انتقل الشاعر الى نقل كلامها للمتلقي، وذلك حين طلبت منه الرفق بقلبه في الهوى، والذي اجاب عنه الشاعر باستفهام انكاري مفاده أنّه غدا من دون قلب بسبب فراقها له:

علـــى كُـــلِّ حـــالٍ انـــتِ قاســـيةُ القلـــبِ فـــلا عَـــذَلِي يجـــدي علـــيَّ ولا عَتْبـــي

ولـــم أنســـها يـــومَ الفِـــراقِ ووجهُهـــا يُضـــيءُ لنـــا خلـــف البراقـــعِ و الحُجْـــبِ

تقـــولُ ألاَ رفقـــاً بقلبـــكَ فـــي الهـــوى فقلـتُ وهـل لِـي يـومَ بَيْنـكِ مِـنْ قَلْـبِ ؟[12]

ويرى بعض الشعراء ان فراق الحبيبة حين يكون عن موعد معلوم، فأنه لا يفجع قلب الشاعر كما في الرحيل المفاجئ، وذلك ما رآه الطغرائي في قوله الذي يعلن فيه عن بقاء حبه لحبيبته التي رحلت عنه من دون سابق انذار:

لـــو أنّ يـــومَ فـــراقِهم عـــن موعِـــدٍ لـــم يَفْجِعـــوا قلبـــي بحُسْـــنِ تجلُّـــدِ

جَـــدَّ الرحيـــلُ وفـــي الفـــؤادِ لُبانـــةٌ بـــين الاهِلَّـــةِ والغُصـــونِ المُيَّـــدِ[13]

إذن كان المضمون الأول من مضامين الفراق في الشعر العباسي هو فراق الحبيبة، والذي تبيّن لنا من خلال نصوصه السابقة التي فصّلنا القول فيها أنّه شكّلَ اثراً نفسيّاً على الشعراء المعنيين بذلك الفراق، ولا شكَّ في أنّ فراق الشاعر لحبيبته أمرٌ في غاية الصعوبة، وذلك ما تحدثوا عنه فعلاً في قصائدهم ومقطوعاتهم، ولاسيما الغزلية منها.

اما المضمون الثاني من مضامين الفراق، فهو الذي تحدث فيه الشعراء العباسيون عن الموت و دوره في الفراق بين الناس كرهاً لا اختياراً، فعندما يموت ابناء الشاعر او واحد منهم، او عندما يموت صديق له، او ممدوح سابق، فأنه (الشاعر) يمرُّ بموقف نفسي متأزم نتيجة فراق أحدهم، وتكون حصيلة ذلك التأزم النفسي ابداع قصيدة او مقطوعة تتضمّن الحديث عن ذلك الموت الذي اختطف شخصاً عزيزاً على قلب الشاعر، يصور فيها الفراق وأثر الموت السلبي فيه، كما حصل مع الشاعر العتبي الذي افتقد أولاده السبعة واحداً تلو الاخر بسبب مرض الطاعون الذي فتك بهم، فتركوا أباهم في حزن بالغ تبين أثره البالغ في شعره من خلال كثرة رثائه لهم، ففي احدى مقطوعاته التي تناولت هذا المضمون، يتحدث عن بكائه سابقاً على الذين ماتوا من أقاربه، ولكن الذين يحبهم ما زالوا موجودين ولم يشتتهم الدهر، غير انه سرعان ما بكاهم أيضاً حين فرقهم المرض المعدي، لذا نراه معلناً عن عدم رغبته في الحياة، لاقتسام دموعه بين الاحياء والاموات، فيقول:

قد كنتُ أبكي على مَن فاتَ مِن سَلَفِي وأهل ودِّي جَميعٌ غَيرُ أشتاتِ

والان إذ فُرِّقتْ بيني و بينهُمُ نَوًى بكَيْتُ على أهل المَوَدَّاتِ

وما بقاءُ امرئٍ كانت مدامعُهُ مَقسُومَةً بين أحياءٍ و أمواتِ[14]

ويبدو أنّ سلطة الموت فرضت نفسها بقوة على الشاعر، بسبب كثرة طرقه لبابه واختطافه لاولاده، وذلك واضح من خلال الصدق النفسي الذي كان بادياً في الكثير من نصوصه التي تحدث بها عن كلِّ مَن حوله في حال موته وفراقه الدنيا، ففي إحدى مقطوعاته يتكلم على معارفه الذين سيعرضون عن ذكره بعد موته، فلا يبكون إلاّ القليل على قبره، وينشغلون بحياتهم وأصدقائهم عنه، إذ يقول:

وعَمّا قليلٍ لن ترى باكِيا لنا سَيَضْحَكُ مَنْ يَبكي و يُعرِضُ عن ذكرِي

ترى صاحِبي يَبكي قليلاً لِفُرقتي ويضحك مِن طولِ اللّيالي على قَبري

ويُحْدِثُ اخواناً و يَنْسى مَوَدَّتي وتُشْغِلُهُ الأحبابُ عنّي وعن ذِكري[15]

وحين يترك العتبي الحديث عن نفسه وأولاده، وينتقل لرثاء أحد أصدقائه المقربين الى نفسه، نراه متألماً متحسراً بسبب فراقه، فيصور دعواته للمتوفى وعدم اجابة الاخير، فيكون الرد حزناً عليه، فضلاً عن أن الشاعر عدّ موت صديقه موتا لِلّذّات جميعها بعد ان كانت حية بحياته، فضلاً عن تصوير شدّة شوقه له، على الرغم من عدم الانتفاع من ذلك الحزن والشوق، لأنهما لا يغيران من الواقع شيئاً:

دعوتُكَ يا أُخَيَّ فلم تُجبْني فَرُدّت دَعوتي حُزناً عَلَيَّا

بِمَوتِكَ ماتتِ اللّذاتُ مِنّي وكانتْ حيَّةً إذ كُنْتَ حَيّا

فيا أسَفِي عليكَ و طُولَ شَوقِي إليكَ لو أنَّ ذاكَ يَرُدُّ شَيَّا[16]

وتبقى كارثة فقد الابناء المحَرّك الرئيس لبعض الشعراء الذين تناولوا الفراق موضوعاً لقصائدهم ومقطوعاتهم، كونها المصيبة الاكثر تفجعاً بالنسبة للشعراء المعنيين بالامر، فمَا مرَّ به العتبي، واجهه ابن الرومي ايضاً، لأنه فَقَدَ طفليه (محمد

و علي)، فتحدّث في مقطوعة رثائية عن فراقهما له، وطبيعة فعل ذلك الفراق على نفسه الممتلئة أسىً ووحشة، صور فيها مفارقة النوم لعينيه بعد موتهما، وتسابق الدموع في خدّيه، وهو يشعر بالأرق دوماً، ونتيجة لذلك لا يعرف طعم الراحة على حدّ قوله، وهو – من خلال ذلك كله– يتحدّث عن رقّة قلبه الحزين بفراقهما، حتى كادت نار الصبابة تحرقه، وفي نهاية مطاف مقطوعته يطلب من المتلقي عدم التعجب من وجده وقلقه، لأنه صاحب فاجعة كبيرة و يشعر بالشوق لولديه، لذا فهو في قلق ووجد دائمين لهما، فيقول:

أطبقــتُ للنــوم جفنــاً لــيس ينطبــقُ وبــتُّ و الــدمع فــيَّ خَــدَّيَّ يَســتبقُ

لــم يســترح مــن لــه عــينٌ مؤرقــةٌ وكيــف يعــرف طعــم الراحــة الأرِقُ؟

محمــــدٌ و علــــيٌ فَتَّتــــا كبــــدي إذا ذكرتُهُمــــا والعــــيسُ تنطلــــقُ

خِــلاّنِ حَــلَّ بقلبــي مــن فِراقِهمــا مــا كنــتُ أخشــى عليــه قبــلَ نفتــرقُ

قلــبٌ رقيــقٌ تلظَّــتْ فــي جوانبــه نــارُ الصــبابة حتــى كــاد يحتــرقُ

ودِدْتُ لــو تــمَّ لــي حجّــي بقربهمــا مــا كُــلُّ مــا تشــتهيه الــنفسُ يتّفــقُ

لا يعجــب النــاسُ مــن وجــدي ومــن قلقــي إنّ المشــوقَ الــى أحبابــه قلــقُ [17]

وتبدو كأس الفراق أشدّ مرارة من أيّة كأس أخرى، ولاسيما اذا كان الفراق عن طريق الموت، اذ لا أمل يرتجى في اللقاء مرّة أخرى ولو بعد حين من الزمن، ومرارة الفراق هذه تحدث عنها الصنوبري من خلال رثائه لأحد اصدقائه، قائلا:

كــم تَجرّعــتُ للفــراقِ كؤوســاً لا ولا مثــل كــأسِ هــذا الفــراق[18]

أما المتنبي، فأنه– من خلال رثائه لأبي شجاع فاتك – يجعل الفراق أعظم خطباً من الموت، فهو (الشاعر) يجبن عند فراقه أحبته ويخاف كثيراً، ولكنه يشجع في ميدان الحرب والقتال، وبذلك امتزج حديثه عن الفراق بالفخر بنفسه، فهو لا يهاب الموت في سوح الوغى، إذ يقول:

إنّــي لأَجْــبُنُ مِــن فِــراقِ أحِبّتــي وتُحِــسُّ نفســي بالحِمــامِ فأشْــجُعُ[19]

وكان الشاعر ابن الخياط فارق أحد أصدقائه لمدة طويلة من الزمن، ثم سمع بخبر موته، فرثاه رثاءً حاراً مخاطباً اياه بأنه قد فقده قبل موته، وذلك الفراق عنده يشبه خطب الموت تماماً، إذ لا فرق بينهما، وبذلك يكون فراق الاحياء وفراق الاموات بالمرتبة نفسها لدى الشاعر في قوله:

رُزِئْتُــكَ حَيًّــا وخَطْــبُ الفِــرا قِ أشْــبَهُ شَــيءٍ بَخْطــبِ الحِمــامِ[20]

في حين كان المضمون الآخر من مضامين شعر الفراق في العصر العباسي متعلقاً بفراق الاصدقاء، وكل ما يدور حول المضمون هذا، فعندما يفارق الشاعر شخصاً او صديقاً قريباً من نفسه، فأنه يحس بمرارة ذلك الفراق، فضلاً عن

الوحشة التي سيحياها بابتعاد صديقه عنه، والفراغ الذي سيتركه خلفه، فعندما ودّع الشاعر عبد الله بن المبارك أحد اصدقائه، أخبره أن فراقهما هذا فراق حياة لا فراق ممات، في دلالة أكيدة على حتمية اللقاء في زمن قادم، كونهما حيّين وليسا ميّتين، يقول:

ونَحـــــنُ نُنـــــادي أنّ فُرقَـــــةَ بَينِنـــــا فِـــــراقُ حَيـــــاةٍ لا فِـــــراقُ مَمـــــاتِ[21]

أما ابو تمام، فأنه يصف حدّة شوقه الى أحد اصدقائه بعد فراقه له، جاعلا يوم الفراق يوماً عظيماً في همومه ووحشته، داعياً عليه بعدم السقي، كونه ترك جسمه سقيماً، قائلاً:

يَـــومَ الفِـــراقِ لَقَـــد خُلِقْـــتَ عَظِيمـــا وتَركـــتَ جِســـمِي- لا سُـــقِيتَ- سَـــقِيما

مـــــا للفِـــــراقِ تَفَرّقَـــــتْ أعضـــــاؤهُ مـــا زالَ يَعـــصِفُ باللّقـــاءِ قـــديما!؟[22]

وللمتنبي نظرات ورؤى مختلفة في فراق الاصدقاء، وكثيراً ما كان يمزج فخره وشكواه وحكمه في أثنائها، ومن ذلك مثلاً أنه عندما ودّع أحد أصدقائه، جعل الفراق توأماً له في حال لو كان الفراق مما يُولد، وفضلاً عن تلك الرؤية فأنه رأى في الفراق أمراً لا بُدّ منه، كما أن أجود الخيول التي نقلته عن صديقه هي الأردأ من وجهة نظره هو، كونها كانت الأسرع في ابعاده عنه، فيما عدا أنه لم يكن يرى في الدهر شيئاً محموداً ابداً، إذ قال:

أمّـــا الفِـــراقُ فإنّـــه مـــا أعْهَـــدُ هـــو تَـــوْأَمِي لَـــو أنَ بينـــاً يُولَـــدُ

ولقـــــد عَلِمْنـــــا أنّنـــــا سَـــــنُطِيعُهُ لَمّـــــا عَلِمْنـــــا أنّنـــــا لا نُخْلَـــــدُ

واذا الجيـــــادُ أبـــــا البَهِـــــيِّ نَقَلْنَنـــــا عَـــــنكُمْ فَـــــأرْدَأُ مـــــا رَكِبْـــــتُ الأجْـــــوَدُ

مَـــنْ خَـــصَّ بالـــذَّمّ الفِـــراقَ فـــإنّني مَـــن لا يَـــرى فـــي الـــدَّهْرِ شَـــيئاً يُحْمَـــدُ[23]

ولا يتوقف ابداع أبي الطيب عند هذه النقطة فحسب، لأنه مشاريع ابداعات لا تنضب، فهو حين يودع أحد ممدوحيه المقرّبين على نفسه كثيراً، يخبره بأنّ وداعه له ليس وداع محب لحبيبه، ولكنه وداع الروح لجسدها، وذلك لشدّة حبّه إيّاه، ثم دعا لذلك الممدوح بالسقيا والخصب من خلال تمني عدم مفارقة السحاب لبلدته الرملة، وبعد ذلك يلجأ أبو الطيب الى مخاطبة الفراق نفسه، طالباً منه عدم العودة اليهما مرّة اخرى في حال اجتماعهما مجدّداً، إذ يقول:

مـــــاذا الـــــوَدَاعُ وداعُ الوامِـــــقِ الكَمِـــــدِ هـــــذا الـــــوَدَاعُ وداعُ الـــــرُوحِ للجَسَـــــدِ

إذا السَّـــــحابُ زَفَتْـــــهُ الـــــرِّيحُ مُرْتفِعـــــاً فـــــلا عَـــــدَا الرَّمْلَـــــةَ البيضـــــاءَ مِـــــن بَلَـــــدِ

ويـــــا فِـــــراقَ الاميـــــرِ الرَّحْـــــبِ مَنْزِلُـــــهُ إنْ انـــــتَ فارَقْتَنَـــــا يومـــــاً فـــــلا تَعُـــــدِ[24]

ولكن هذه المشاعر الجياشة لدى ابي الطيب تجاه الاصدقاء قد تنقلب الى فراق طويل معهم من لدن الشاعر نفسه، وذلك في حال تغيّرهم عنه وانقلابهم عليه، وفي تلك الحال لا يعجز الشاعر عن تسويغ الحيل لفراقهم، فهو قادر على فراق أي صديق يشعر بانقلاب مودته وتغيره عنه:

إذا صَـــــــدِيقٌ نَكِـــــــرْتُ جانِبَـــــــهُ لـــم تُعْـــنِ◌ِي فـــي فِراقِـــهِ الحِيَـــلُ[25]

وعلى الرغم من ذلك الموقف من الشاعر، تبقى هنالك استثناءات لديه مع بعض الممدوحين الأصدقاء، كما هي الحال مع سيف الدولة الحمداني، الذي – وإن فارقه ابو الطيب – اعترف الشاعر بان فراقه يعزّ عليه، لانه لا يمكن باية حال من الأحوال ان يجد بديلا له عنه، وذلك لأسباب معروفة ليس هنا محل ذكرها، يقول:

يـــا مَـــنْ يَعِـــزُّ علينـــا انْ نُفـــارِقَهُمْ وِجـــدانُنا كُـــلَّ شـــيءٍ بَعْـــدَكُمْ عَـــدَمُ[26]

اما فراق الأصدقاء لدى بعض الشعراء العباسيين، فانه يجعل حياتهم مليئة بالهموم، فضلاً عن تكدر عيشهم، كما يقول ابن لنكك البصري:

فـــــراقُ أخِلاّئـــــي الـــــذين عهـــــدتهم يوكـــــل قلبـــــي بـــــالهمومِ اللـــــوازمِ

ومـــــاذا أُرجـــــي مِـــــن حيـــــاةٍ تَكَـــــدَّرَتْ ولـو قـد صـفت كانـت كأضـغاثِ حـالِمِ[27]

ويبدو موقف السرّي الرّفّاء شبيهاً بموقف ابي الطيب في بعض شعره عن فراق الاصدقاء الذي تحدثنا عنه قبل قليل، فقد هجر صديقه محمداً حين تمادى في هجرانه، ولم يعد العتاب نافعاً معه، والموقف هذا من الشاعر يشبه نسيان الربيع حين تتوالى لياليه وايامه، وكما ينسى صاحب الشيب شبابه بمرور الزمن:

سَـــــلَوتُ مُحمّـــــدًا لَمّـــــا تمـــــادى بـــــه الهِجْـــــرانُ وانقطَـــــعَ العِتـــــابُ

وقـــــد يُنســـــى الرَّبيـــــعُ إذا تَوَالَـــــتْ لَيالِيـــــهِ وقـــــد يُسْـــــلَى الشّـــــبابُ[28]

ولا توجد مرارة في الحياة أشد من مرارة فراق الصديق، وهذا ما دفع بعض الشعراء الى الدعوة من الله (سبحانه وتعالى) بتسليط الموت على الفراق، كيلا يفرق بين الناس، كما في قول الوأواء الدمشقي:

أيُّ شـــــيءٍ أمَـــــرُّ مِـــــن بَـــــيْنٍ وفِـــــراقٍ لصـــــاحِبٍ و انـــــيسِ

لَـــــو رَمـــــى اللهُ بـــــالفراقِ المَنايـــــا شُـــــغِلَتْ عـــــن طِلابِهـــــا للنُّفُـــــوسِ[29]

وقد يترك فراق الصديق ذكريات مؤلمة لدى صديقه، وليس ذلك فحسب، بل قد يُذكي في القلب اشجاناً لا يستطيع الشاعر تحمّلها، كما يقول ابو الفتح البُستي:

فـــــراقُ هـــــذا الشـــــيخ أذكـــــى لنـــــا فـــــي القلـــــب أشـــــجاناً و أشـــــجانا[30]

إلاّ أنّ تعوّد بعض الشعراء على الفراق بسبب كثرة تعرضهم له، جعلهم يصرّحون بعدم مبالاتهم له، ومن اولئك الشعراء الحسين بن مطير الاسدي الذي جعل عينه تنام مع فقد الحبيب وابتعاده عنه، إذ يقول:

وفارقـــتُ حتـــى مـــا أُبـــالي مـــن النّـــوى وإنْ بـــــانَ جيـــــرانٌ عَلَـــــيَّ كِـــــرامُ

فقـــد جعلـــتُ نفســـي علـــى النـــأي تنطـــوي وعينـــي علـــى فقـــدِ الحبيـــبِ تَنَـــامُ[31]

وكان فراق الشباب – وان ورد قليلاً– أحد المضامين الأُخر للفراق في الشعر العباسي، فعندما يهرم الشعراء، يتوافد الشيب على رؤوسهم بكثرة، يدركون فراق الشباب، فيحسّون بالمرارة نتيجة لذلك، فأبو حيّة النميري يتمنى– بعد انْ يتحدث عن رحيل الشباب– لو أنّ الشيب كان هو الراحل عنه بدلاً من الشباب، فلا يمكن ان يكون هناك بديل عن الشباب، لانه الخليل الذي يُسعِد صاحبه، ويسوّغ له أفعاله دوماً:

تَرحّـــلَ بالشّـــبابِ الشّـــيبُ عنّـــا فليـــتَ الشـــيبَ كـــان بـــه الرّحيـــلُ

وقـــد كـــان الشّـــبابُ لنـــا خلـــيلاً فقـــد قَضّـــى مآرِبَـــهُ الخليـــلُ

لَعَمْـــرُ أبـــي الشّـــبابُ لقـــد تَـــوَلّى حَميـــداً مـــا يُـــرادُ بـــه بَـــديلُ

إذ الايّـــــامُ مُقبلـــــةٌ علينـــــا وظِـــلُّ أراكـــةِ الـــدُّنيا ظَليـــلُ[32]

ولكن عندما يعتاد الشاعر على الشيب الذي حَلّ ضيفاً على رأسه، ويتكيّف على العيش معه، نراه على العكس من الموقف السابق يتمنى بقاءه بعد أن كان لايرغب في رؤيته، فيعزّ عليه فراقه بعد أنْ كان يتمنى تجنّبه، وذلك ما صرّح به ابو بكر بن دريد الأزدي في قوله:

ولـــي صـــاحبٌ مـــا كنـــتُ أهـــوى اقترابـــه فلمّـــا التقينـــا كـــان أكـــرم صـــاحِبِ

يعـــــزّ علينـــــا أنْ يفـــــارق بعـــــدما تمنّيْـــتُ دهـــراً أنْ يكـــون مجـــانبي[33]

بعد ان تطرقنا فيما مضى من الدراسة الى مضامين شعر الفراق، نأتي الآن على ذكر الصفات التي وصف بها الشعراء الفراق، علماً أنّ تلك الصفات كانت كلها صفات سلبية، وذلك يدلّ على شدّة أثر الفراق سلبياً في الشعراء الذين تعرّضوا له بغض النظر عن نوع ذلك الفراق، فالفراق عند بعضهم شديد، ولاسيما حين يصدر عن الحبيبة التي يخشى الشاعر صدّها عنه، وفراقها له:

إنّـــــي أحـــــاذِرُ صَـــــدّهُ و فِراقـــــهُ إنّ الفِـــراقَ علـــى المُحِـــبِّ شَـــدِيدُ[34]

كما أنّ يوم الفراق يومٌ عبوسٌ، ويؤذي النفوس كثيراً:

إنّ يـــــومَ الفِـــــراقِ يَـــــومٌ عَبُـــــوسُ أيُّ سَـــيْلٍ تَسِـــيلُ فيـــهِ النفـــوسُ ![35]

كما أنّه يوم طويل على العاشقين، ولاسيما مع الحزن الذي يرافقه، كما في قول البحتري:

يـــا ابْنَـــةَ (العـــامِرِيّ) عَمّـــا قَلِيـــلِ يـــأْذَنُ الحَـــيُّ – فـــاعلَمِي– بالرّحِيـــلِ

قـــد سَـــمِعْتُ الغُـــرَابَ يُوعِـــدُ بَيْنـــاً وانْصِـــــراماً لِحْبِلـــــكِ المَوْصـــــوُلِ

كيـــفَ لـــي بالســـلُوّ؟ لا كيـــفَ و البَيْـــ نُ غـــداً نـــازلٌ بخَطْـــبٍ جَليـــلِ

إنّ يـــــومَ النّـــــوى لَيَـــــومٌ طَويـــــلٌ لـــيسَ يَفْنَـــى ويـــومُ حُـــزْنٍ طَوِيـــلِ[36]

والفراق مُرٌّ على الشاعر، فضلاً عن أنه يحرق الكبد بنيرانه المتأجّجة:

فواحَسْـــــرَتا مـــــا أمَـــــرَّ الفِـــــراقَ وأغْلَـــــقَ نِيرانَـــــهُ بـــــالكُبُودِ[37]

كما أنّ يوم الفراق عند الوأواء الدمشقي أظلم من ظلمة الصدود:

يـــــا غائبـــــاً لـــــم يَغِـــــبْ هَـــــواهُ عـــــن قلـــــبٍ صَـــــبٍّ بـــــه عَمِيـــــدِ

قـــــد صـــــار يـــــومُ الفِـــــراقِ عنـــــدي أظلـــــم مـــــن ظُلَمَـــــةِ الصُّـــــدُودِ

وكُـــــلُّ أُنْـــــسٍ تغيـــــبُ عنـــــهُ فإنَّـــــهُ وَحْشَـــــةُ الجُحـــــودِ

لَـــــو فَجَـــــعَ البَـــــينُ قلـــــبَ صَـــــبٍّ ذابَ ولـــــو كـــــانَ مِـــــن حَديـــــدِ[38]

وحينما يفارق الشاعر حبيبته بالكره منه، يرى أنّ يوم الفراق ذلك يطول شرقاً وغرباً، فيصبح وكأنما هو يومان لا يوم واحد:

فارَقْـــتُ بـــالكُرهِ مَـــنْ أهـــوى و فـــارقني شَـــتّانَ لَكِنّنـــا فـــي الـــوُدِّ ســـيّانِ

كأنّمـــا قُـــدَّ طـــوْلاً يَـــوم فُرقَتنـــا شَـــرقاً وغَربـــاً فأمْســـى وهْـــوَ يَومـــانِ[39]

وبعد ان كال الشعراء العباسيون هذه الصفات السلبية للفراق، تحدثوا عن فعله في الانسان المتعرض له من النواحي المختلفة، ولاسيما اثارته للبكاء وذرف الدموع، إذ كَثُرت الظاهرة هذه بدرجة كبيرة في شعر الفراق، فالبحتري يتمنى ان تكون دموعه المنسكبة من عينيه بمثابة المُسكِّن لغليله، كونه هائماً مشتاقاً لمَن فارقه، لذا نراه يطلب من لائمه أن يدعه ودموعه لكي تتناجى بفعل يوم الفراق الذي كان شديد الأثر في نفسه:

دَعْ دُمُـــوعي فـــي ذلـــكَ الاشـــتياقِ تتنـــاجى بِفِعْـــلِ يَـــومِ الفِـــراقِ!

فعســـى الـــدَّمْع أنْ يُســـكنَ بالسَكْـــ بِ غَلـــيلاً مِـــن هـــائمٍ مُشـــتاقِ[40]

ونلحظ في شعر البحتري كثرة ذرفه للدموع في يوم الفراق، وهو يعلّل ذلك البكاء بالاشتياق الشديد الذي يشعر به المفارقان، فضلاً عن امور أُخر لا يسعنا الكلام عليها كلها في هذا المقام[41].

ولم يبكِ ابن المعتز ويتدفق الدمع من عينيه إلاّ لأنه متيّمٌ جَرَحَ الفراقُ فؤادَهُ كما يقول هو عن نفسه، ففي لحظات الفراق لم يستطع تمالك نفسه حتّى أنه يظن أنّ له قلباً يخفف في كلّ عضو من أعضاء جسده في تلك اللّحظات:

ومُتـــيّمٍ جَـــرَحَ الفِـــراقُ فُـــؤادَهُ فالـــدمعُ مـــن أجفانـــه يَتَـــدَفَّقُ

هَزّتْـــهُ ســـاعةُ فرقـــةٍ فكأنّمـــا فـــي كُـــلِّ عضـــوٍ منـــهُ قلـــبٌ يَخفِـــقُ[42]

ويرى الوأواء الدمشقي أن عينيه معذورتان في كثرة بكائهما على حبيبته التي فارقته، لأن الفراق–عنده– ذو حرارة كالنار الملتهبة، وفضلاً عن كثرة البكاء، نراه يلطم خدّيه حزناً عليها، فالزمان قد رماه بسهم الفراق الذي لا يخطئ مرماه، وشتّت شمله مع الحبيبة، ولم يجمعهما مجدّداً بعد إصابتهما:

حَقيـــــــقٌ لِعَيْنَـــــــيَّ أنْ تَعْـــــــدما لِحَـــــــرِّ الفِـــــــراقِ و أنْ تَجْزَعـــــــا

وألْطِـــــمُ خَـــــدَّيَّ حُزنـــــاً عليـــــه وأبكـــــي علـــــى الإلْـــــفِ إذْ وَدّعـــــا

رَمـــــاني الزّمـــــانُ بسَـــــهْمِ الفِـــــراقِ فَشَـــــتّتَ شَـــــمْلي و لـــــمْ يَجْمَعـــــا[43]

وعُرِفَ الشريف الرضي برقّة غزله الذي لايمكن أنْ يخدش حياءً، أو يثير غريزة محرّمة، سوى ما فيه من رقّة الشوق وكلمات الحب العذبة، فهو– بعد رحيل الحبيبة عنه– لايتعلّل إلاّ بدموعه التي كانت طبيبه، علما أنّ ذلك الطبيب غير قادر على شفاء جروحه جراء فراق مَنْ أحبها، فكبده ستذوب عاجلاً أو آجلاً بفعل فراقها، يقول:

الـــدّمْعُ مُـــذ بَعُـــدَ الخَلـــيطُ قَريـــبُ والشَّـــوقُ يَـــدعُو والزّفيـــرُ يُجيـــبُ

مـــا كُنـــتُ أعلَـــمُ أنّ يَـــومَ فِـــراقِكُمْ تُبْقِـــي عَلَـــيَّ نَـــواظِرٌ وقُلُـــوبُ

إنْ لـــمْ تَكُـــنْ كَبِـــدِي غَـــداةَ وَدَاعكـــم ذابَـــتْ، فـــأعْلَمُ أنّهـــا سَـــتَذُوبُ

دُاءٌ طلبـــتُ لَـــهُ الأُســـاةَ، فلـــم يكـــنْ إلاّ التّعَلّـــلُ بالـــدّمُوعِ طبيـــبُ

إمّـــا أقَـــمتُ، فـــإن دَمعِـــي غالِـــبٌ لِعَـــوَاذِلي، وتَجَلُّـــدِي مَغْلُـــوبُ

أبْقَـــوا علـــيلاً بَعْـــدَهُمْ لا بُـــرْؤُهُ يُرجَـــى، ولا الامـــالُ فيـــهِ تَخِيـــبُ[44]

ولا يذرف الشريف الرضي الدموع على الحبيبة حين ترحل و تبتعد عنه فحسب، بل نراه يذرفها–ايضاً– على فراق الملوك و الوزراء ممّن كانت لهم علاقات طيبة معه، فما ان يرحل أحدهم حتى يتشوق الشاعر له، ويعبر عن شوقه بالبكاء على رحيله في شعره، كما حدث مع الملك (بهاء الدولة) حين فارقه لمدة من الزمن، إذ قال في الشوق اليه:

يَشـــكُو فِـــراقُهُم القلـــبُ الـــذي جَرَحُـــوا مِنِّـــي، وتَـــبْكِهِمُ العَـــينُ التـــي طَرَفُـــوا[45]

وللشريف المرتضى صورة نادرة في ذرف الدموع في حال رحيل الحبيبة، وهو يعبر عنها بطريقة المحاورة بينه وبين الحبيبة التي أوشكت على الرحيل، إذ تتّهمه بعدم الكرم بالدموع ساعة الفراق، فلم تنهل مدامعه حزناً لبعدها، فكان جواب الشاعر عدم علم عينيه بالفراق بسب صدمته من وشك الرحيل، والا لكانتا أمطرتا على الفراق سيلا من الدموع ولاشك في أن الصورة هذه تعبير عن ذكاء مبدعها الذي خالف سابقيه في قضية ذرف الدموع ساعة الفراق، يقول:

قالـــت: ضَـــنَنْتَ علينـــا بالـــدُّموعِ و قَـــد سِـــرنا و دَمْعُـــكَ منهـــلٌّ إذا شِـــيتا

فقلـــتُ: لـــم تَـــدرِ عينـــي بـــالفِراقِ فلـــم تمطـــرْ عليـــه لأنّـــي كنـــتُ مبهوتـــا[46]

وتبدو كلمة (مبهوتاً) ذات دلالة معنوية جميلة، لانها تعبّر بواقعية كبيرة عمّا يعتري الانسان في لحظات الوداع والفراق، تلك اللحظات التي ينصرف فيها تفكيره عن كلّ شيء في الكون باستثناء الفراق والوداع، فضلاً عن انه يؤكد – في مناسبة أخرى لحبيبته– أنه لم يبق منه بعد فراقها له سوى الدموع التي كانت تسيل من عينيه، في دلالة على كثرة ذرفه لها في كلّ حين، فهو القائل:

لـــم يبـــقَ منّـــي بعـــد يـــوم فـــراقكمْ الا دمـــــــوعٌ للفِـــــراقِ تســــــيلُ[47]

واذا كان المرتضى مبهوتاً لحظة الفراق، ولم يذرف الدموع نتيجة لذلك، فان أسامة بن منقذ كان على العكس منه في تلك اللحظة، وذلك لانه ينشغل بالبكاء عن لَذّة النظر الى حبيبته في اثناء التوديع، لذا يطلب من عينه ان تمتلئ نظراً للحبيبة قبل فراقها، ثم تاخذ وقتها من أجل السهر و الدموع، إذ يقول:

يـا عـينُ، فـي سـاعةِ التوديـعِ يُشـغلُكِ الـ بكـــاءُ عـــن لَـــذّةِ التَّوديـــعِ والنّظَـــرِ

خُـــذي بِحَظِّـــكِ مـــنهم قبـــل بيـــنهمُ وبعدَهم فاجهدي فـي الـدَّمْعِ و السَّـهَرِ[48]

ولطرافة الصور هذه، وجودة صياغة الفاظها وتراكيبها، فضلاً عن جودة معناها، نرى ان الشاعر لجأ الى تكرارها في وقت آخر وفي مناسبة مختلفة، فكان المضمون نفسه في قوله:

أقـــولُ للعَـــينِ فـــي يـــومِ الفِـــراقِ، و قـــد فاضَـــتْ بـــدِمعٍ علـــى الخـــدَّينِ مُسْـــتَبِقِ

تَـــزَوَّدِي اليـــومَ مـــن تـــوديعهم نظـــراً ففـــي غَـــدٍ تَفرُغـــي للـــدَّمعِ والأرقِ[49]

وبطبيعة الامر، ونظراً للموقف الذي يحسّ به الشعراء في ساعة الفراق، ولا سيما لمحبوباتهم، نرى ان الاكثار من الحديث عن فعل الفراق بجعل العيون تفيض دمعاً، ويغمرها البكاء[50]، أمرٌ لا مفرّ منه، فضلاً عن طبيعة النفس البشرية التي تميل الى الحزن في مثل المواقف هذه، فذرف الدموع كان أحد أسبابه المهمة هو الحزن الذي ينتاب الشاعر حين يدرك ذهاب السعادة برحيل حبيبته عنه، فلوعة الفراق تجعل العاشق مجروح الفؤاد حزناً على ما ذهب من التمتع باللقاء، وما سيأتي من الألم الناتج عن التأقلم مع الذكريات التي اصبحت ماضياً بسب الفراق، لذا يرى السّريّ الرّفاء ان ملامة الشاعر من لدن الآخرين شيء لا ضرورة له، لانهم لا يدركون ما يحلّ به من الم الفراق، أو الحزن الذي ينخر عظامه و يتعايش معه:

هـــذهِ الشّـــمْسُ أوشَـــكَتْ أنْ تَغِيبـــا فـــــأقلاّ المَـــــلامَ و التّأنيبـــــا

أوجَبَـــتْ لَوْعَـــةُ الفِـــراقِ علـــى الصـــ بِّ جـــوَى يَقْتَـــرِحُ الفُـــؤادَ وَجيبـــا

لَـــنْ تـــرى غَالِـــبَ الصَّـــبابةِ حتّـــى تَـــدَعَ اللّـــومَ فـــي الهـــوى مَغْلُوبـــا[51]

وكان تأثير الفراق في بعض الشعراء كبيراً جداً، الى الدرجة التي يصور فيها أحدهم نفسه بأنه لا يستفيق من حالة السكر التي لازمته الا بعودة من فارقه:

أيهـــا الغائـــب الـــذي حضـــر الشـــو قُ اليـــــه وواصـــــل التفريـــــق

أنـــا ســـكرانُ مـــن فراقـــكَ حزنـــاً لســـتُ إلاّ إذا قـــدمتَ افيـــق[52]

وكان المرض الذي يصيب الشاعر الذي فارق احد محبيه، من افعال الفراق الأُخر ولاسيما نحول الجسم، فعلي بن الجهم – حينما فارقته حبيبته– خاطبها بأنها أحبُّ شيء له في الحياة، وأنّ شوقه لها سيقضي عليه، ثم أعرب لها عن تأثير فراقها في نفسه، إذ اكتوى قلبه بنار الشوق، يقول:

اعْلَمِـــي يـــا أَحَـــبَّ شـــيءٍ إليَّـــا أنّ شـــوقي إليـــكِ قـــاضٍ عَلَيَّـــا

إنْ قضـــى اللهُ لـــي إليـــكِ رجوعـــاً لا ذكـــرتُ الفِـــراقَ مادُمـــتُ حَيَّـــا

إنّ حَـــرَّ الفِـــراقِ أنْحَـــلَ جســـمي وكـــوى القلـــبَ منـــكِ بالشَّـــوْقِ كيَّـــا[54]

فالشاعر يظل سقيماً طوال مدة غياب الحبيبة عنه، فاذا ما وصلته وعادت اليه، يبرأ من سقمه ومرضه، وذلك ماصرّح به الشاعر أحمد بن ابي فنن في قوله:

فـــإذا هَجـــرتَ يعـــودُ لـــي سَـــقَمِي واذا وَصَـــلْتَ بـــرأتُ مـــن سَـــقَمِي[54]

وفي اللحظات التي يدرك فيها الشاعر أن الفراق حتميّ واصبح وشيكاً، يتصوّر أنّ النار أُضْرِمَتْ في كبده وقلبه على السواء، وما تلك النار الا نار العشق والصبابة، وبذلك يكون تأثيرها– بفعل الفراق– في الشاعر أقوى من تأثير السيوف والرماح من وجهة نظر البحتري:

قـــالوا: مَطايـــا التـــي تَهْـــوى سَـــتَرْتَحِلُ فـــي يومِنـــا أو غَـــدٍ، والبَـــيْنُ مُقْتَبِـــلُ

فأضْـرَمُوا – إذ أشـاعُوا البَـينَ – فـي كبِـدِي والقَلْـبِ نـــارَ الهَـــوى والشّـــوق تَشْـــتَعِلُ

والبَـــينُ يَفْعَـــلُ بالعُشّـــاقِ مُحْتَكِمـــاً مـــا لـــيسَ يَفعلُـــهُ الهِنـــدِيُّ والاسَـــلُ[55]

واذا كانت حبيبة البحتري أضرمت النار– برحيلها– في كبده و قلبه، فان حبيبة الشريف المرتضى أوقدت النار في أضلعه، إذ فارقته مريضاً من دون دواء يشفيه من حبّه لها، وتركته– يوم الفراق– ضعيف القوى غير متماسك ولا متجلّد، فبينه وبين تجلّده باب عظيم، فضلاً عن تركه مُغرقاً بدموعه التي تسيل في لحظات الوداع، إذ يقول في ذلك:

ودواءُ أمـــــراضِ النّفـــــوسِ كثيـــــرة والحـــــبُّ داءٌ لـــــيس منـــــه عـــــلاجُ

بينـــــي و بـــــين تَجلُّـــــدِي وتماســـــكي – والعـــــيسُ ترحَـــــلُ للفـــــراقِ–رِتـــــاجُ

هـــم أوقـــدوا نـــارَ الهـــوى فـــي أضـــلُعِي بفـــــراقهمْ يـــــومَ الرّحيـــــلِ وهـــــاجوا

فـــي ســـاعةٍ مـــا إنْ بهـــا إلاّ جـــوَى يُضِـــي وســـيلُ مـــدامعٍ ثُجّـــاجُ[56]

وكان الخوف الذي يشعر به الشاعر من جرّاء الفراق واحداً من تأثيرات الفراق السلبية، والتي أثرت تأثيراً بالغاً في قصائد الشعراء العباسيين، ولاسيما اذا كان الفراق حدثاً متوقعاً من لدن الشاعر، لذا يظل الاخير خائفاً من وقوعه في اية لحظة، كما فعل ابن الرومي حين قال:

وَقَــعَ الفِــراقُ ومــا يَــزالُ يَرُوعنــي فكــأنَّ واقــع شَــرِّهِ مُتَوَقَّــعُ(57)

وعلى الرغم من أنَّ حبيبة الشريف المرتضى هي التي اختارت الجفاء والفراق على الرغم من رغبة الشاعر عنه، الا انها رَوّعت قلبه الذي كاد يهيم من كثرة خوفه من ذكر الفراق:

مــا أرادتْ الاّ الجفــاءَ ظَلُــومُ يــوم رامــتْ عَنّــا و لســنا نَــرِيمُ

رَوَّعَــتْ بــالفراقِ قلبــاً إذا رِيــ عَ بــذكرِ الفِــراقِ كــادَ يهــيمُ(58)

ووصل الأمر ببعض الشعراء الى تهويل فعل الفراق على نفوسهم، بل الى المبالغة في وصف ما اعتراهم ساعة الفراق، وأنْ كان فعلهم ذلك صحيحاً من ناحية الشعور الشخصي، فأبو الفتح البُستي يقسم بالله (تعالى) أنّ ألف حرزٍ وألف راقٍ لا يتمكنون من تخليصه من بعض ما ناله من الألم والوحشة لحظة الفراق، إذ يقول:

واللهِ لــو أنهــم أتــوني بــألف حــرزٍ و ألــف راقــي

لــم يــذهبوا بــبعض مــا اعترانــي ونــالنِي ســاعة الفِــراقِ(59)

وحين توهّم بعض الناس أن الشاعر سيسليه الفراق عن أحبته، وأنه لا بُدَّ أنْ يتعرّف غيرهم، فيكونون بديلاً له عنهم، نراه ينفي ذلك التوهُّم بحرقة وحماسة واضحتين في شعره، وليس ذلك فحسب، بل ويدعو على عينيه بالعمى فيما لو حدث مضمون ذلك التوهّم، وهذا ما طرحه الشاعر مهيار الديلمي في قوله:

توهّمــوا أنّ الفِــراقَ سَــلْوَةٌ عــنهم فــلا أحللــتُ مَــن تَوَهَّمــا

وأنّ عينــي مُلِئَــتْ مــن غيــرهم إذ منعــوا، إذنْ رأتْ عينــي العمــى(60)

أما أسامة بن منقذ، فأنه يعد دنياه مظلمة بعد فراق حبيبته له، فحياته لم تغدُ أكثر من ليلة طويلة لا ينتظر بزوغ الفجر بعدها، وحتماً فأنّ هذه الرؤية دليلٌ على شدّة هول مأساة الفراق على الشاعر، وإلاّ فما الداعي للمبالغة هذه إنْ لمْ تكن فاجعته حقيقية بفقد الحبيبة؟ يقول:

لقــد أظلمــتْ دُنيــايَ بعــدَ فــراقِكمْ فكــلُّ زَمــانِي ليلــةٌ مــا لهــا فَجْــرُ(61)

وفي الوقت الذي تفارق فيه الحبيبة حبيبها، نجد الشاعر يبالغ كثيراً في ردّة فعله، وذلك حين يجعل مفارقته للدنيا بعد رحيلها بيوم واحد فقط، وذلك ما ادّعاه الصنوبري في قوله:

ذكــروا أنّ الفــراقَ غــداً وفــراقُ الــنفسِ بعــدَ غَــدِ(62)

وعلى الرغم من المبالغات الكبيرة في بعض النصوص الشعرية من ناحية الشكل والتناقض مع الواقع الحياتي، إلاّ أنّنا نرى أن اصحابها كانوا صادقين من ناحية الجوهر في التعبير عن مشاعرهم وما أحسّوا به في بواطن عقولهم، فصدق

القول نابع من صدق التجربة ومعاناتها حقيقة لا ادعاء، ولا نشكّ في أنّ الشعراء الذين تطرقوا لتلك المبالغات الشكلية قد عانوا فقد بعض الاحبة عليهم، ولاسيما حين تكون المفقودة المرأة التي أخلصوا لها في الحب، ولم يحصلوا منها إلاّ على فراقها لهم، لذا نراهم عبّروا عن ألم حقيقي ومعاناة صادقة.

ولما كان فعل الفراق سيئاً على الشعراء الى تلك الدرجة، لجأوا الى اتخاذ مواقف عدّة منه، عكسوها لنا في قصائدهم ومقطوعاتهم، التي تضمنت الحديث عنه، وأهمها عدم الترحيب به، والدعاء عليه دعوات تعبّر عن مدى ضجرهم منه ومن فعله فيهم وفي احبابهم الذين ابتعدوا عنهم بسببه.

ففيما يخصّ عدم الترحيب بالفراق حين يصبح قريباً، قال الفضل بن محمد اليزيدي:

الآن إذْ قَرُبَـــــــــتْ رَوَاحِلُنـــــــــا وصـــــاحَ بـــــالبَينِ ناعِـــــبٌ نَعْبـــــا

أيقنـــــــتُ أنّ الفـــــــراقَ لازِمُنـــــــا لا مرحبـــــاً بـــــالفِراقِ إذْ قَرُبـــــا(63)

أما فيما يتعلق بدعوات الشعراء السلبية على الفراق، فقد تعدّدت كثيراً، بوصفها أقلَّ ما يمكن أن يفعله الشعراء كرَدَّة فعل تجاهه، فهذا ابو حيّة النميري يقول فيه:

جَـــــزى اللهُ أيّـــــامَ الفِـــــراقِ ملامـــــةً ألا كُـــــلُّ أيّـــــامِ الفِـــــراقِ مُلِـــــيمُ(64)

ويدعو بعضهم عليه بشَلِّ يمينه، كونها اليد التي لا تخطئ اصابتها الشاعر، إذ فرّقت بينه وبين حبيبته التي غادرته– بسبب سهم الفراق– غريق شوق وصريع أسقام:

يـــــا قَمَـــــر الكـــــرخِ إنّ عبـــــدَكُم غَريـــــقُ شـــــوقٍ صَـــــريعُ أســـــقامِ

لـــــم يخـــــطِ سَـــــهْمُ الفـــــراقِ مهجتَـــــهُ شُـــــلَّتْ يمـــــينُ الفِـــــراقِ مِـــــن رامِ(65)

وبما ان الفراق سبب رئيس في ابتعاد العشّاق عن بعضهم، وجعلهم يعانون ألم الفراق و الشوق، دعا بعضهم عليه بأن يُبتلى بحرِّ الفراق، من مثل قول الصنوبري:

ليـــــتَ دهـــــراً قضـــــى علـــــى العشّـــــاقِ بفـــــراقٍ يُبلـــــى بحـــــرِّ الفِـــــراقِ(66)

وليوم الفراق نصيب من تلك الدعوات ايضاً، بوصفه المسؤول عن تشتيت شمل الشاعر من خلال رميه واصابته، لذا يدعو الشاعر عليه طالباً من الله (تعالى) أنْ يرميه بالتفريق والتشتيت:

يـــا نفـــسُ مُـــوتي فَقَـــدْ جَـــدّ الأســـى مُـــوتي مـــا كُنْـــتِ أوّلَ صَـــبٍّ غيـــرَ مَبْخُـــوتِ

يـــــومُ الفِـــــراقِ رَمـــــى شَـــــمْلي فَشَـــــتّتَهُ رَمـــــاهُ رَبِّـــــي بتَفْريـــــقٍ و تَشْـــــتيتِ(67)

وكان للشعراء العباسيين مواقف أُخر مع الفراق غير عدم الترحيب به، أو الدعاء عليه دعوات سلبية، فلمّا كان الفراق أمراً محتوماً عليهم، وأصبح جزءاً من حياتهم لا بدّ لهم من التأقلم معه، دعاهم ذلك الى عدِّه (الفراق) والموت من دون فرق يُذكَر بينهما، أعني عدّوهما أمراً واحداً في فعلهما في الانسان عموماً، والشعراء خصوصاً، فكلاهما صعب على الشاعر، فهما واحد إذن، ولعلّ أبرز مَن اتخذ الموقف هذا هو الشاعر ابو تمام، وذلك حين قال:

المَـــــــوتُ عِنـــــــدي والفِـــــــرا قُ كِلاهُمـــــــا مـــــــا لا يُطـــــــاقُ

يَتَعاونـــــــان علـــــــى النُّفُـــــــو سِ فَـــــذَا الحِمـــــامُ و ذا السِّـــــياقُ

لَـــــوْ لـــــم يَكُـــــنْ هـــــذا كـــــذا مـــــا قِيـــــلَ مَـــــوْتٌ أو فِـــــراقُ(68)

ولم تبتعد رؤية الصولي عن رؤية أبي تمام فيما يتعلق باشتراك الفراق والموت بالصفة نفسها، وذلك في اثناء مناجاته نفسه ومحاورته لها، إذ يقول:

وناجيـــتُ نفســـي بـــالفراق أروضـــها فقلـــتُ رُوَيـــداً لا أغَـــرَّك مـــن صـــبري

فقلـــتُ لهـــا فـــالبَيْنُ والهجـــر واحـــد فقالـــت فـــأُمنَى بـــالفراقِ و بـــالهجرِ(69)

ويَعدُّ أحمد بن أبي فنن الفراقَ أشدّ من الموت، وذلك في معرض كلامه مع حبيبته، إذ يطلب – من خلاله – وصلها له، ليكون ذلك الوصل دليلاً على رضاها عنه، يقول:

صَـــحِيحُ الـــوُدِّ لـــو يُمْســـي عَلِـــيلا لتكتـــبَ أو نَـــرى مـــنكمْ رســـولا

أراكَ تَســـــومُهُ الهجـــــرانَ حتّـــــى إذا مـــا اعتـــلَّ كُنـــتَ لَـــهُ وَصُـــولا

فَـــرُدَّ ضَـــنَى الحيـــاةِ بوصـــلِ يـــومٍ يكـــون علـــى رضـــاكَ لـــهُ دلـــيلا

همـــا مَوتـــانِ: مـــوتُ ضَـــنًى وهجـــرٍ ومـــوتُ الهجـــرِ شـــرُّهما ســـبيلا(70)

ولايجد الشريف الرضي فرقاً بين الفراق والموت حين تفارقه المرأة التي يعشقها، فحين علم أنّ يوم الهجر آت، طلب من قلبه أن يجَدّدَ حزنه بسبب ذلك الفراق الذي لا يختلف عن الموت في شيء:

ياقَلـــــــبِ جَـــــــدّدْ كَمَـــــــدَا فَمَوعِـــــــدُ البَـــــــيْنِ غَـــــــدا

لَـــــــمْ أرَ فَرقـــــــاً بَعْـــــــدَهُمْ بـــــــينَ الفِـــــــراقِ والـــــــرَّدى(71)

ويرى الرضي– كذلك – أنّ الموت والفراق قرينان، فما ان يكون الهجر حتى يكون الموت، وذلك في معرض تهنئته لأبيه، الذي كثيراً ما عانى الشاعر بسبب فراقه عنه، لتعرضه للحبس سنوات طوال كما هو معروف، فيقول في ذلك:

رَعَـــى اللهُ مَـــنْ فارَقـــتُ مِـــن غَيـــرِ رَغبـــةٍ علـــى الوَجـــدِ منّـــي و السّـــقام المُطـــابِقِ

يُباعِـــدُ عَنّـــي مَـــنْ غَرامـــي لأجْلِـــهِ ويَقْـــرُبُ مَـــنْ قَلْبـــي لَـــهُ غَيـــرُ وَامِـــقِ

إذا شِـــئْتَ أنْ لا تَهْجُـــرَ الهَـــمَّ فـــاغتَرِبْ وإنْ شِـــئْتَ أنْ يـــأتي الحِمـــامُ فَفـــارِقِ

فكُـــلُّ غَرِيـــبٍ يـــألَفُ الهَـــمُّ قَلبَـــهُ ولاسِـــيّما قَلـــبُ الغَرِيـــبِ المُفـــارِقِ(72)

والفراق أشّد مرارة من الموت لدى مهيار الديلمي، فهو (الشاعر) لم يعدّهما أمراً واحداً كما فعل الشعراء الذين سبقوه زمنياً، بل جعل الموت أحلى بكثير من العيش مع وجود الفراق لمن يهواهم، يقول:

وقـــالو: خـــف اللهَ فـــي مُهجـــةٍ سـمحتَ بهـا لضـنًى واشـتياقِ

ويُسـليك أنّـك مُـذْ فـارقوك علـى عهـد مـن أتلـف البـينُ بـاقي

فقلـتُ: وهـل هـو إلاّ الحِمـا مُ أحلـى مـن العـيش بعـد الفِـراقِ[73]

وعُرِفَ الشعر العباسي برُقي غرض الحكمة فيه بفعل عوامل كثيرة كان أهمها اطلاع شعرائه على الفلسفة اليونانية بوساطة الترجمة التي ازدهرت حينها، لذا كانت الحكمة حاضرة بدرجة كبيرة في شعر الفراق في العصر هذا، بوصف الفراق مُحرّكاً رئيساً لنشوئها لما يعانيه الشعراء بسببه من التأثيرات السلبية في حياتهم، ولما يشعرون من الألم والحسرة بفقد أحبابهم ومفارقتهم لهم، فالفراق لدى العباس بن الأحنف هو الذي بدّد شمله بحبيبته بعد أن كان مجتمعاً، ولذلك نراه يعبّر بحكمة أليمة مفادها أنّ مَنْ لم يتعرّض للوعة الفراق مثله، فانه لا يمكن ان يعرف الحزن او الجزع في حياته، فكلُّ شيء مستصغر في نظره باستثناء فراق الأحباب، فيقول:

يـا ويـحَ هـذا الفِـراقِ مـا صَـنعا بَـدّدَ شَـمْلي وكـان مُجْتَمِعـا

مَـنْ لـمْ يَـذُقْ لَوعـةَ الفـراقِ فَلَـمْ يُلْـفَ حَزِينـاً ومـا رأى جَزَعـا

وكُـلُّ شـيء-سـوى مُفارقـةِ الـ أحبـابِ-مُسْتَصْـغَرٌ وإنْ فَجَعـا[74]

ووجدت الحكمة هذه صداها عند الشاعر الحسن بن وهب الذي يرى أن الفراق عندما يحلّ، فأن الأرواح ترحل عن اجسادها بسببه، لذا فهو يعتقد أنّ الإنسان الذي لم يتعرض له لا يعلم ما معنى تفتّت الأكباد من ألم الفراق، فهو القائل:

أمّـا الفـراقُ فحـين جَـدَّ تَرَحَّلَـتْ مُهَـجُ النُّفُـوسِ بـه عـن الأجسـادِ

مَـنْ لَـمْ يَبِـتْ و البـينُ يَصْـدعُ قَلْبـه لـم يَـدْرِ كيـف تفتّـتُ الأكبـادِ[75]

وحين توفى ولدٌ للشافعي دعا الى الصبر على حكم الدهر، لأنه طُبِعَ على الغدر بالناس دوماً، فبسببه يفقد الإنسان أمواله، أو يفارق أحبّته، وذلك في قوله:

ومـا الـدّهرُ إلاّ هكـذا فاصـطبِرْ لَـهُ رَزِيَّـةُ مـالٍ أو فـراقُ حَبيـبِ[76]

ومن الحكم الأُخر النابعة من تأثير الفراق في الإنسان، هي أنّ مَن يرمي بنفسه الى الفراق بلا صبرٍ ولا جَلَد قد أضاع الحزمَ، وأصبح شخصاً بلا إرادة وغير قادر على المواجهة:

قـد ضَـيَّعَ الحَـزْمَ مَـنْ يَرْمـي بِمُهْجَتِـهِ الـى الفِـراقِ بـلا صـبْرٍ ولاجَلَـدِ[77]

وحين رثى الشريف المرتضى أبا إسحاق الصابي، أفرز حكمة حزينة ترى أنّ أشدّ الفراق على الناس مالَمْ يُرْجَ فيه الأمل بعودة التلاقي من جديد، كون المفارق هنا ميتاً، لذا فمأساة الفراق في الحال هذه تكون أشدّ وقعاً في نفس الشاعر من فراق الأحياء الذي يرتجى اللقاء فيه، ولو بعد مدّة من الزمن وإن طالت:

مـــا كـــان يومُـــك يـــا إبـــا إســـحاقِ إلاّ وداعـــــي للمُنـــــى و فراقـــــي

وأشـــدّ مـــا كـــان الفـــراقُ علـــى الفتـــى مـــا كـــان موصـــولاً بغيـــر تَـــلاقِ[78]

ويتكرر مضمون الحكمة الأخيرة نفسه لدى شاعر عباسي متأخر، حين يرى أن فراق مَنْ تتأمّل رؤيته فيما بعد صعب، فما بالك بمَنْ لا تتأمل رؤيته ثانية بعد فراقه؟!

وفُرقـــةُ مـــا يُعـــادُ عليـــكَ صَـــعْبٌ فكيـــف فِـــراقُ شـــيءٍ لا يُعـــادُ[79]

كما تحدث بعض الشعراء العباسيين عن الصبر على فراق الأحباب والأصدقاء، إلاّ أنّ ورود الصبر في قصائدهم لم يكن بجوهره الإيجابي، وإنما جاء بوصفه السلبي، فهم لم يتحملوا الفراق بمظاهره المتعددة، لذا لم يجعلوا الصبر حليفاً لهم في لحظة الفراق، واعترفوا بذلك الرفض له، كما فعل خالد الكاتب حين حاور قلبه في لحظات الفراق عن محبّيه، طالباً منه ألاّ يعتقد بأنه سيصبر إذا ما حَلّ الفراق:

لـــم يَـــثْنِ عَنـــكَ الـــرَّدى يـــا قلبـــيَ الحَـــذَرُ هـــذا الـــذي لـــم تَـــزَلْ يـــا قلـــبُ تَنْتَظِـــرُ

هُـــــوَ الفِـــــراقُ وآهٍ بـــــالفراقِ فـــــلا تَقُـــلْ إذا حَـــلَّ إنّـــي سَـــوفَ أصـــطبرُ[80]

أمّا ابن الرومي الذي بدا صابراً في وقت الفراق طمعاً بقرب التلاقي في قوله:

أشـــــكو الفِـــــراقَ الـــــى التلاقـــــي والـــــى الكـــــرى ســـــهرَ المـــــآقي

والـــــــى السُـــــــلوِّ تفجُّعـــــــي والـــــى التصـــــبُّر مـــــا أُلاقـــــي

والـــــى الـــــذي شـــــطتْ بـــــه عنـــــي النّـــــوى طـــــول اشـــــتياقي

وطـــــوتْ حشـــــايَ علـــــى الجـــــوى مـــــا طَوتْـــــهُ يـــــدُ الفـــــراقِ

صَـــــــبراً فَـــــــرُبَّ تفـــــــرّقٍ آتٍ بقـــــــربٍ واتِّفـــــــاقِ[81]

فانه لم يظهر بهذا التجلّد في مقطوعة أخرى من شعره الغزلي، إذ خانه صبره حين سمع بخبر رحيل حبيبته عنه، عادّاً يوم رحيلها أمراً جليلاً وعظيماً، فضلا عن وصفه حال الحبيبة في لحظات الوداع، وذلك في قوله:

خانـــك الصّـــبْرُ يـــومَ قيـــل الرحيـــلُ إنّ خطـــبَ الفـــراقِ خطـــبٌ جَليـــلُ

وتـــــزودت مـــــن ســـــليماك زاداً فيـــــه للطالـــــبِ الشـــــفاءَ غليـــــلُ

نظـــــرت حضـــــرة الـــــوداعِ بعـــــينٍ غســـــلتها الـــــدموعُ وهـــــي كحيـــــلُ

يحـــــدُرُ المـــــاءُ مـــــن محـــــاجر عينيـــــ هـــــا علـــــى خـــــدّها مَسِـــــيلٌ أســـــيلُ[82]

وحين يروم الشاعر أبو الفتح البُستي الصبر ساعة فراق الحبيبة، يكون الصبر أوّل خاذل له، فلا يستجيب لندائه، لأنه رحل عنه قبل رحيلها، إذ يقول:

يـــــا راحـــــلاً أمســـــى يـــــزم ركابـــــه قـــــد زمَّ صـــــبري فهـــــو أوّلُ راحِـــــلِ

اللهُ يعلـــــــمُ أنّنـــــــي لفـــــــراقكم فـــــي لوعـــــة موصـــــولةٍ ببلابـــــلِ

إنْ رمـــــتُ عنـــــك تصـــــبّراً فالصـــــبرُ أوْ وَلُ خـــــاذلٍ والعـــــدلُ أوّلُ عَـــــادِلِ[83]

والأشجان التي يحسّها الشريف الرضي يوم الفراق تفضح صبره الذي عزّ يوم اللّقاء، يقول:

عَـــزَّ صـــبري يـــومَ اللّقـــاءِ، ولكـــنْ فَضَـــحَتْهُ الأشـــجانُ يَـــومَ الفـــراقِ[84]

وفي الوقت الذي توفي فيه النحوي المعروف أبو الفتح النيسابوري، رثاه الشريف المرتضى رثاءً حارّاً، أعرب – من خلاله–عن جزعه لفراقه، مشيراً في الوقت نفسه الى الذين اعتقدوا – جهلاً–بأنه سيصبر على موته، لأنّ المرتضى لم يصبر على وفاته وفراقه، ولاسيما أنه (المتوفي) كان مؤدباً لأولاده، فقال:

إن كـــــان غَيّبَـــــك التـــــرابُ الأحمـــــرُ وحَلَلْـــــتَ مَرْتـــــاً لا يـــــزورك زُوَّرُ

فلقـــــد جَزِعْـــــتُ علـــــى فراقـــــك بعـــــدما ظَنُّـــــوا بـــــأنّي عنـــــك جهـــــلاً أصـــــبِرُ[85]

ولعلّ أجمل ما قيل من شعر في الفراق ما كان موصولاً بالتلاقي، فهذا الطباق المعنوي الذي جمع فيه الشعراء العباسيون الضدين (الفراق والتلاقي) كان ذا بعد جوهري في قمة الابداع الشكلي والدلالي على السواء، فقد تزاحمت المفردات في أذهان الشعراء وتنافست في معانيها، لاعطاء صورٍ ناضجة ومفرحة في الآن نفسه بعد أن تكدّرت النفوس بحرّ الفراق والم الاشواق، فرجاء التلاقي مع الحبيبة بعد غيابها– عند البحتري– كان يهوّن على الشاعر ما يلقاه من الم الفراق ومرارته، يقول:

فـــــي حُضُـــــورِ الفِـــــراقِ عِنـــــدَ لقائيـــــ كَ احتِـــــراقٌ يَفُـــــوقُ كـــــلَّ احتِـــــراقِ

وإذا مـــــا نأيـــــتُ هَـــــوَّنَ مـــــا ألْـــــ ـــــقاهُ مـــــن نـــــأيكُمْ رَجـــــاءُ التّلاقـــــي

ليتنـــــي قـــــد رأيـــــتُ وجْهَـــــكَ عـــــن قُـــــرْ بٍ، فـــــأنَّى إليـــــكَ بالأشـــــواقِ![86]

ويدعو الصنوبري على الفراق بالتلاقي في ضمن دعوات كثيرة دعا بها عليه، كان منها أنْ يذوق الفراق طعم الفراق ليشعر بفعله حين يفرق بين المحبّين والعشاق، قائلاً في ذلك:

انـــــا بالشـــــام والهـــــوى بـــــالعراقِ موثَـــــقٌ مـــــن صـــــبابتي فـــــي وثـــــاقِ

ذو اشـــــتياق ألتـــــذُّ بَـــــردَ دمـــــوعي لـــــو وفـــــى بَردُهـــا بحـــرِّ اشـــتياقي

لـــــيس يـــــدري الفـــــراقُ مالوعـــــةُ العشـــــ ـــــقِ فيرثـــــي للوعـــــة العُشّـــــاقِ

لـــــو دَرى لا دَرى الفـــــراقُ لمـــــا فَـــــرْ رَقَ بـــــين المشـــــتاقِ و المشـــــتاقِ

ســـــوف أدعـــــو علـــــى الفـــــراقِ وأدعـــــو للتلاقـــــي سَـــــقياً لعهـــــد التلاقـــــي

وإنّ مَـــــنْ قَـــــدَّرَ الفـــــراق قـــــديرٌ أنْ يُـــــذيقَ الفـــــراق طعـــــمَ الفِـــــراقِ(87)

وبعد أنْ يعدّ الوأواء الدمشقي الأيام حاسدة له ولحبيبته بسبب تلاقيهما، ذلك الحسد الذي جعلها ترميهما بالفراق من دون ارادتها، نراه يدعو الله (تعالى) الى أنْ يجعل التلاقي شامتاً بالفراق من خلال التقائهما مجدّداً:

حَسَـــــــدَتْنا أيّامُنـــــــا بـــــــالتلاقي فَرَمَتْنـــــــا تَعَسُّـــــــفاً بـــــــالفراقِ

مـــــا أرَدْنـــــا الفِـــــراقَ لا كـــــان مِنّـــــا أشْـــــمَتَ اللهُ بـــــالفراقِ التّلاقـــــي(88)

ويتساءل الشريف الرضي عمّا إذا كان سيستريح من ألم الفراق، ولايبقى سوى التلاقي، فيتخلص من حزنه وجزعه، ويمحو دمعه المتواصل من عينيه، ومن ثم يشعر بأنّه قويّ، إذ انتصف من الفراق بوساطة التلاقي، فيقول:

أتُـــــرى نُـــــراحُ مِـــــنَ الفِـــــراقِ يومـــــاً، ونأخُـــــذُ فـــــي التّلاقـــــي

فـــــأغُضُّ مِـــــن جَزَعِـــــي، وأمـــــ حُـــــو الـــــدّمْعَ مِـــــنْ بَـــــينِ المـــــآقي

وأروحُ فـــــي ظَفَـــــرِ القَـــــوِيِّ وقـــــدِ انتَصَـــــفْتُ مِـــــنَ الفـــــراقِ(89)

وفي صورة نادرة نجد البحتري مادحاً الفراق بطريقة تفوق التوقعات، إذ صاغ ذلك المدح بطريقة الحكمة الناتجة عن عتابه لبعض اصدقائه، فيعتقد أنّه لولا الفراق لما عُشِقَ التلاقي، قائلاً:

لَعـــــلَّ تَخَـــــالُفَ الطيّـــــاتِ، مِنّـــــا يعُـــــودُ لنـــــا بِقُـــــربٍ واتِّفـــــاقِ

فَلَـــــولا البُعْـــــدُ مـــــا طُلِـــــبَ التّـــــداني، وَلَـــــولا البَـــــينُ مـــــا عُشِـــــقَ التّلاقـــــي(90)

ولاشكّ في أنّ بيتي البحتري حالة نادرة وخاصة، انطلقت من لحظة نفسية إزاء موقف معّين مرّ به الشاعر، فالفراق يبقى لدى الجميع مكروهاً لمساوئه واثاره السلبية في النفوس التي تبقى مولّهة حائرة كما رأينا فيما سلف من الدراسة هذه.

كما استخدمت لفظة الفراق في غرض المديح، فقد أفاد منها الشاعر إسحاق الموصلي في صياغة بيتين مَدَحَ بهما أحد ممدوحيه، إذ عدّ – فيهما– مفارقته مثل فراق الحياة، وفقده مثل فقد السحاب الممطر، كما أنّ فراقه له فراق للكرم وللنعمة التي كان يحظى بها عنده، فيقول:

فِراقُـــــكَ مثـــــلُ فـــــراقِ الحيـــــاةِ وفقـــــدُكَ مثـــــلُ افتقـــــادِ الـــــدِّيمْ

عليـــــكَ السّـــــلامُ فكـــــمْ مِـــــن وفـــــاءٍ أُفـــــارِقُ فيـــــكَ وكـــــمْ مِـــــنْ كـــــرمْ[91]

وختاماً للدراسة هذه نقول: إنّ الفراق كان ذا مضامين متعددة في الشعر العباسي كما رأينا فيما سبق، فضلاً عن أنّ الشعراء نعتوه بصفات سلبية كثيرة تمّ التطرق اليها ايضاً، وتحدثوا عن افعاله السلبية في قصائدهم وتأثيراتها فيهم من النواحي المختلفة، حتّى أنهم عدّوه والموت بمثابة النتيجة الواحدة، ولكن ذلك لم يمنع من وجود شعر الحكمة الذي نتج عنه أصلاً، غير أنّهم لم يصبروا عليه، وجزعوا من تعرّضهم له كما تبيّن لنا.

الهوامش

1. ينظر نص الرواية في: طبقات الشعراء/255–256، وتنظر الأبيات على التوالي في: ديوان العباس بن الأحنف/28، 251، علماً أنّني اعتمدت رواية الديوان كونها أكثر دقة من طبقات الشعراء.
2. ديوان علية بنت المهدي/37.
3. ديوان أبي تمام4/248.
4. ديوان خالد الكاتب/406–407.
5. ديوان البحتري2/791.
6. شعر ابن المعتز1/241.
7. م.ن1/276.
8. م.ن3/138.
9. شرح ديوان المتنبي3/21.
10. ديوان أبي فراس الحمداني/27.
11. ديوان الوأواء الدمشقي/60.
12. ديوان الشريف المرتضى1/263.
13. ديوان الطغرائي/143.
14. شعر العتبي/52–53.
15. م.ن/59.
16. م.ن/90–91.
17. ديوان ابن الرومي4/1694.
18. ديوان الصنوبري/440.
19. شرح ديوان المتنبي3/12.
20. ديوان ابن الخياط/95.
21. ديوان الامام عبدالله بن مبارك/44.
22. ديوان ابي تمام4/539.

23.شرح ديوان المتنبي 2/102-103.
24.م.ن2/116، زفته: ساقته.
25.م.ن3/327.
26.م.ن4/87.
27.شعر ابن لنكك البصري /44.
28.ديوان السّريّ الرّفّاء1/440.
29.ديوان الوأواء الدمشقي/126.
30.أبو الفتح البُستي حياته وشعره/371.
31.شعر الحسين بن مطير الاسدي/73.
32.شعر أبي حيّة النميري/161.
33.ديوان شعر الامام ابي بكربن دريد الأزدي/40.
34.ديوان العباس بن الاحنف/104.
35.ديوان أبي تمام4/241.
36.ديوان البحتري3/1677.
37.شرح ديوان المتنبي2/64، وينظر: ديوان الصنوبري/411.
38.ديوان الوأواء الدمشقي /88.
39.ديوان ابن رشيق القيرواني /215-216.
40.ديوان البحتري3/1461.
41.ينظر: م. ن3/1499-1500، 1518، 1519، 1556، 1753.
42.شعر ابن المعتز1/312.
43.ديوان الوأواء الدمشقي/141.
44.ديوان الشريف الرضي 1/183.
45.م.ن2/6، ينظر مثل ذلك: 2/21.
46.ديوان الشريف المرتضى1/276.
47.م. ن2/265، وينظر مثل ذلك2: /283.
48.ديوان أسامة بن منقذ/74.
49.م.ن/90.
50.ينظر على سبيل المثال: احمد بن ابي فنن/163، وديوان ابن الرومي2/767، وديوان الثعالبي/82.
51.ديوان السّري الرّفّاء1/347.
52.أبو اليُمن تاجُ الدين زيدُ بن الحسن الكندي البغدادي حياته وما تبقى من شعره/65.
53.ديوان علي بن الجهم/224.
54.احمد بن أبي فنن/174.
55.ديوان البحتري3/1891.
56.ديوان الشريف المرتضى1/309-310، الرتاج: الباب العظيم المطبق وفيه باب صغير، ثجاج: سيّال.
57.ديوان ابن الرومي4/1495.
58.ديوان الشريف المرتضى2/415، رام عن المكان يريم ريماً: زال عنه و فارقه.

59. أبو الفتح البُستي حياته وشعره/286.
60. ديوان مهيار الديلمي 254/3.
61. ديوان اسامة بن منقذ/73.
62. ديوان الصنوبري/478.
63. الفضل بن محمد اليزيدي/184.
64. شعر أبي حيّة النميري/171، وينظر مثل ذلك: ديوان أبي تمام510/4.
65. محمد بن يحيى اليزيدي/116.
66. ديوان الصنوبري/437.
67. ديوان الخالديّيْن/31.
68. ديوان أبي تمام 240/4، السياق: نزوع الروح، وينظر مثل ذلك: ديوان عبد الصمد بن المعذّل/145-146، وديوان القاضي الفاضل 493/2.
69. ديوان ابراهيم بن العباس الصولي/144.
70. أحمد بن ابي فنن/167.
71. ديوان الشريف الرضي353/1.
72. م.ن58/2.
73. ديوان مهيار الديلمي293/2-294.
74. ديوان العباس بن الاحنف/179.
75. الحسن بن وهب/135.
76. شعر الشافعي/238.
77. ديوان علية بنت المهدي/30.
78. ديوان الشريف المرتضى 209/2.
79. ديوان الامير شهاب الدين البغدادي المعروف ب(حَيْص بَيْص)349/2.
80. ديوان خالد الكاتب /257-258.
81. ديوان ابن الرومي1708/4.
82. م.ن2047/5.
83. أبو الفتح البُستي حياته وشعره/294-295، يزم ركابه: يشدّه استعداداً للرحيل.
84. ديوان الشريف الرضي 85/2.
85. ديوان الشريف المرتضى465/1.
86. ديوان البحتري1549/3.
87. ديوان الصنوبري/431.
88. ديوان الوأواء الدمشقي/167.
89. ديوان الشريف الرضي98/2.
90. ديوان البحتري1528/3، الطيّات: جمع الطيّة وهي الضمير والنيّة.
91. ديوان إسحاق الموصلي/233-234.

المصادر والمراجع

-أبو الفتح البُستي حياتهُ وشعره، الدكتور محمد مرسي الخولي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1980م.

-أبو اليُمن تاجُ الدين زيدُ بن الحسن الكندي البغدادي حياته وما تبقى من شعره، تقديم وتحقيق: الدكتور سامي مكي العاني، هلال ناجي، مطبعة المعارف-بغداد، 1977.

-أحمد بن أبي فنن، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس احمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1406هـ، 1986م.

-الحسن بن وهب، ضمن: ال وهب من الاسر الأدبية في العصر العباسي، الدكتور يونس احمد السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، مطبعة المعارف-بغداد، 1979.

-ديوان ابراهيم بن العباس الصولي، صنعة: ابن أخيه أبي بكر محمد بن يحى الصولي الشِّطرنجيّ، نسخه وصحّحه وخرّجه وعارضه: عبد العزيز الميمني، ضمن: الطرائف الأدبية، عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م.

-ديوان ابن الخياط، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي، رواية تلميذه: أبي عبد الله محمد بن نصر بن صغير الخالدي القيسراني، عني بتحقيقه: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط2، 1414هـ - 1994م.

-ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه ورتبه: الدكتور عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة بيروت، د.ت.

-ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، طبعة ثالثة منقحة، 1424هـ -2003م، شارك في تحقيق الجزء الثاني: د. سيدة محمد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني، وشارك في تحقيق الجزء الرابع: وفاء محمود الأعصر، احمد حسين علي صالح، منير محمد المدني، وشارك في تحقيق الجزء الخامس: وفاء محمود الأعصر، سيدة حامد عبد العال، محمد حسن أبو حسن.

-ديوان ابي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، 1965م.

-ديوان ابي فراس الحمداني، رواية: ابي عبد الله الحسين بن خالويه، عني بجمعه ونشره: د. سامي الدهان، الاختيار والتقديم والشرح: احمد عكيدي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2004م.

-ديوان اسامة بن منقذ، حقّقه وقدّم له: الدكتور احمد احمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.

-ديوان اسحاق الموصلي، جمعه وحققه: ماجد احمد العزي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة الايمان-بغداد، 1970م.

-ديوان الامام عبد الله بن المبارك، جمع وتحقيق ودراسة: د. مجاهد مصطفى بهجة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع-المنصورة، ط3، 1413هـ -1992م.

-ديوان الأمير شهاب الدين ابي الفوارس سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي البغدادي المعروف بـ (حَيص بَيْص)، حققه وضبط كلماته وشرحها وكتب مقدمته: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الاعلام-الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة-بغداد، 1394هـ -1974م.

-ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ج2، 1963م، ج3، 1965م.

-ديوان الثعالبي، ابي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، دراسة وتحقيق: د. محمود عبد الله الجادر، طبع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م.

-ديوان خالد الكاتب، تحقيق ودراسة: الدكتور يونس احمد السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، طبع بمطبعة دار الرسالة، 1401هـ -1981م.

-ديوان الخالديّيْن، ابي بكر محمد وابي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي، جمعه وحقّقه: الدكتور سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1388هـ -1969م.

-ديوان السّري الرّفّاء، تحقيق ودراسة: الدكتور حبيب حسين الحسني، منشورات وزارة الثقافة والاعلام-الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، 1981م.

-ديوان الشريف الرضي، دار صادر-بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ -1961م.

-ديوان الشريف المرتضى، حقّقه ورتّب قوافيه وفسّر الفاظه: رشيد الصفّار، راجعه وترجم أعيانه: الدكتور مصطفى جواد، قدّم له: الفقيه الأديب الشيخ محمد رضا الشبيبي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 1418هـ - 1998م.

-ديوان شعر الامام ابي بكر بن دريد الأزدي، اعتنى بجمعه وتهذيبه وتحقيق ما فيه وتصحيحه ووضع فهارسه وتحرير مقدمة بتحقيقات رائقة: السيد محمد بدرالدين العلويّ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ - 1946م.

-ديوان الصنوبري، احمد بن محمد الحسن الضّبي، (من حرف الراء حتى حرف القاف)، حقّقه: الدكتور احسان عباس، نشر وتوزيع: دار الثقافة، بيروت-لبنان، مطابع غريّب-بيروت، 1970م.

-ديوان الطغرائي، تحقيق: د.علي جواد الطاهر، د.يحيى الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة-بغداد، 1396هـ -1976م.

-ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية-القاهرة، 1373هـ -1954م.

-ديوان عبد الصمد بن المعذّل، حقّقه وقدّم له: الدكتور زهير غازي زاهد، دار صادر-بيروت، 1998م.

-ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر-بيروت، ط3، 1996م.

-ديوان علية بنت المهدي، (اخت هارون الرشيد)، جمعه وحقّقه: الدكتور سعدي ضنّاوي، دار صادر-بيروت، 1997م.

-ديوان القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي البيساني، تحقيق: الدكتور احمد احمد بدوي، مراجعة: ابراهيم الابياري، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الادارة العامة للثقافة، الناشر: دار المعرفة، القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، 1961م.

-ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ج2، 1344هـ -1925م، ج3، 1349هـ -1930م.

-ديوان الوأواء الدمشقي، ابي الفرج محمد بن احمد الغسّاني المشهور بالوأواء الدمشقي، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه: سامي الدهان، دار صادر-بيروت، ط2، 1414هـ -1993م.

-شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1357هـ -1938م، [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].

-شعر ابن لنكك البصري، حقّقه وقدّم له: زهير غازي زاهد، مستل من مجلة الخليج العربي، ع1، السنة الاولى، طبع مطبعة حداد/البصرة، 1393هـ-1973م.

-شعر ابن المعتز، صنعة: ابي بكر محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس احمد السامرائي، ج1، منشورات وزارة الاعلام-الجمهورية العراقية، ج3، منشورات وزارة الثقافة والفنون -الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة 0بغداد، 1398هـ -1978م.

-شعر ابي حيّة النميري، جمعه وحقّقه: الدكتور يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والارشاد القومي، احياء التراث العربي، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1975م.

-شعر الحسين بن مطير الاسدي، جمعه وحقّقه: الدكتور محسن غيّاض، وزارة الاعلام، مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة-بغداد، 1391هـ -1971م.

-شعر الشافعي، الامام الفقيه ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: الدكتور مجاهد مصطفى بهجت[كذا]، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر-جامعة الموصل، 1406هـ - 1986م.

-شعر العتبي، جمع وتحقيق: د. يونس احمد السامرائي، منشور في مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد، ع36، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1410هـ -1989م.

-طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، دار المعارف، ط4، 1375هـ -1956م. [تاريخ مقدمة المحقق]

-الفضل بن محمد اليزيدي، ضمن: شعر اليزيديين، جمعه وحقّقه: الدكتور محسن غيّاض، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، توزيع: مكتبة الأندلس-بغداد، مطبعة النعمان-النجف الأشرف، 1973م.

-محمد بن يحيى اليزيدي، ضمن: شعر اليزيديين، جمعه وحقّقه: الدكتور محسن غيّاض، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، توزيع: مكتبة الأندلس-بغداد، مطبعة النعمان-النجف الأشرف، 1973م.